

له بنين وبنات تركتهم له امرأته الأولى، فاستأنفت سميحة حياة ثالثة لسنا في حاجة إلى أن نعرض لها ولا أن نقص أنباءها؛ فلم تكن هذه الحياة الثالثة إلا حُزنًا متصلًا وعذابًا مُقيماً، أبناء لا يلمون بالحياة إلا ليسرعوا إلى الموت أو ليسرع إليهم الموت، وثروة تضخم ويطمع فيها أبناء الضرة، وزوج تتقدم به السن فيدركه الضعف قليلاً قليلاً، ويعظم حظه من الأثرة شيئاً فشيئاً، ويزداد سخطه على هذه الزوج الجميلة ذات الحسب والنسب، ولكنها على ذلك ميلاد مفقاد، كأن بينها وبين الموت عهداً أن تلد له وأن يسرع إلى بنيتها فيختطفهم اختطافاً، وقد عرفت سميحة الدموع ولما تتم السابعة عشرة من عمرها، وقد نيفت سميحة على السبعين ولم يُعرف أنها أنفقت يوماً لم تسفح فيه عبرة ولم تذرف فيه دمعاً، إنما كانت حياتها بكاء متصلاً: بكاء يأتي من الثكل، وبكاء يأتي من قسوة الزوج، وبكاء يأتي من كيد أبناء الضرة، وبكاء يأتي من فقد الزوج آخر الأمر، وبكاء يأتي بعد هذا كله من سيرة من سلّم لها من البنين والبنات ومما كان يختلف على حياتهم من ظروف وخطوب.

فأما جلنار فقد ظلت الفتاة الوحيدة في هذه الأسرة بين إخوتها الشباب والصبية والأطفال، وبين أمها السقيمة، وعَلَّتْها الكريمة، وأبيها الرحيم، وكانت تجد في حياتها النعمة كل النعمة، ولكنها لم تكن تجد في حياتها الرضا كل الرضا؛ فقد كانت تعرف قبح وجهها وترى دمامة صورتها، فتكره ذلك وتضيق به، ولم يكن الشباب من إخواتها يتخرجون من التندر عليها والسُّخر منها، يجدّون بذلك حيناً ويمزحون أحياناً، ويؤذونها به على كل حال؛ وقد كانت فتاة الأسرة، وكان فيها جلد وقوة ونشاط وحب للعمل وسبق إليه؛ فما أسرع ما ألفت الأسرة منها ذلك ورأته لها طبيعة، ثم رأته عليها حقاً، ثم رأت تقصيرها فيه ذنباً، فاندفعت الفتاة إلى العمل ثم دُفعت إليه، وأي بأس في ذلك وقد كان عملاً كريماً شريفاً! وأي حرج في أن تُعنى الفتاة بإخوتها الصغار تحملهم وتنشئهم وتعلمهم، وقد شغلت أهمهم بأمور البيت وبمن كان يولد لها من البنين كل عامين أو في أقل من عامين! فهؤلاء الصبية إخوتها، وهي أرأف بهم وأعطف عليهم من الخدم، وأي حرج في أن تعمل الفتاة مع العائلات في إعداد الطعام وتهيئة الخبز وغسل الثياب! ففي ذلك كله تعليم لها أي تعليم! وهو يعدها أحسن إعداد لتكون ربة البيت يوم يصبح لها بيت، وإذا لم تكن الفتاة جميلة رائعة الجمال ولا حسنة بارعة الحسن، فلا أقل من أن تكون صنّاعاً تحسن الإشراف على أمور البيت والنهوض بأعبائه المختلفة، فليس من المحقق أنها ستجد لنفسها داراً كدار أبيها، فيها الرخاء والثروة،